كلية دجلة الجامعة الاهلية
قسم اللغة العربية
Hiba.alalawy@duc.edu.iq

اسرار التدوين الزائف في كتاب «في الادب العباسي» للدكتور علي الزبيدي

The secrets of false notation in the book «On Abbasid literature» by Dr. Ali Al-Zubaidi

هبة عادل مهدي
Hiba Adil Mahdi

الملخص

ألف الدكتور الزبيدي كتابه (في الادب العباسي) وناقش فيه مسألة توثيق الشعرالعربي القديم بعامة، وتوثيق الشعرالعباسي بخاصة ، وقدّم آراءً خطيرة يقترب في طرحها من اراء الاستاذ الدكتور طه حسين في كتابه (في الادب الجاهلي)، وكانت هذه الأراء تميل إلى الشك في صحة الشعر العباسي!!

أثبت الدكتور الزبيدي شجاعة في عرضه لهذا الموضوع من باب الحرص على أدبنا العربي، وهو موضوع قديم خاض فيه ابن سلام وعدد من النقاد، مؤكدين أنّ الشعر قد شابته أشكال التشويه، فأخذ الدكتور الزبيدي على عاتقه مهمة التقصي والبحث عن طريق طرح الأدلة المؤيدة والحجج المقنعة مستنداً إلى عوامل عديدة كانت السبب في تفاقم هذه المشكلة ، ومنها عامل المنفعة الشخصية التي دفعت الكثير من الوراقين والنساخين والصحفيين إلى تغيير الحقائق في سبيل المكسب المادي ، فضلاً عن العصبيات الفنية، والدينية، والسياسية، وغيرها، و أثرها في التلاعب بمضامينه حتى نُسِبَت أبياتٌ كثيرةٌ إلى غير قائليها، وبذلك يتبين دورالدكتور الزبيدي النقدي في بحثه عن الحقيقة التأريخية ومحاولته كشف تفاصيل اكتنف بها العمل الأدبي من مرحلة إنتاجه حتى وصوله إلينا..

الكلمات المفتاحية: الشك، الانتحال، في الادب العباسي، الدكتورعلي الزبيدي

Abstract

Dr. Al-Zubaidi wrote his book (in the Abbasid literature) and discussed the issue of documenting the ancient Arabic poetry in general, and documenting the Abbasid poetry in particular. He presented serious !! opinions that were close to the views of Professor Taha Hussein in his book The Abbasid

Dr. Zubaidi proved courageous in his presentation of this subject in order to take care of our Arabic literature, which is an old subject in which Ibn Salam and a number of critics, stressing that the poetry has been deformed by forms of distortion, Dr. Zubaidi took on the task of investigation and research through the presentation of supporting evidence and convincing arguments based This has led to a number of factors

that have aggravated this problem, including the personal benefit factor, which led many of the eloquent, the elderly and the journalists to change the facts for the sake of material gain, as well as the technical, religious, political and other facets, and its impact on manipulating its contents even attributed many verses to the non-scholars, thus showing Dr. Zubaidi›s critical role in his search for Historical fact and his attempt to .reveal the details of the literary work from the stage of production until he reached us
Keywords: Doubt, plagiarism, in the Abbasid literature, Dr. Ali Al-Zubaidi

المقدمــة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد واله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. وبعد

فانّ موضوع الشك بمسماه الحديث أو الانتحال بمسماه القديم موضوع مهم خاض فيه الكثير من النقاد والدارسين قديماً وحديثاً ، ولكن الفرادة في طرح هذا الموضوع لدى الدكتور الزبيدي هو الآراء التي طرحها في ثنايا كتابه (في الأدب العباسي) ، والتي تتجه نحو الشك في صحة شعر حقبة عُرفت بالازدهار الثقافي حتى سمي بـ(العصر الذهبي) - لما اكتنفه من الآف المصنفات في مختلف العلوم والمعارف من جهة، ولما وصلت فيه مراحل التدوين من المنهجية والتنظيم والدقة في النقل من جهة أخرى قدّم فيه الدكتور الزبيدي شرحاً و افياً للعوامل التي دفعته إلى شكّه هذا، فكان هذا البحث ثمرة جهود مضنية وضعها بين يدّي الدارس والمطلع بغية تكثيف الجهود للنهوض بأعباء تصفية هذا التراث من الشوائب والأخطاء وعمليات النسبة الخاطئة .ويمكن إجمال تلك العوامل بالمنفعة الشخصية التي دفعت الكثير من الوراقين والنساخين والصحفيين إلى تزييف الحقائق في سبيل الكسب المادي، فضلاً عن العصبيات الفنية، والدينية، والسياسية، وغيرها.

موضوع البحث:

نهضتْ الرواية الشفوية بأعباء نقل التراث الأدبي من جيل إلى جيل فكلنا يعترف بأنه لولا الرواية لما حُفظت لنا تلك الآثار الأدبية الغنية بتاريخ الأمم السابقة لذا توجهت عناية الكثير من النقاد قديماً وحديثاً نحو موضوع الرواية والرواة، و أثيرت الدراسات حول الاعتداد بها وبحملتها من علماء ورواة أفذاذ حافظوا قدر المستطاع على الكم الهائل الذي حملوه من شعرونثر. ولسنا هنا في معرض سرد أو شرح تاريخ الرواية وتطورها عبر العصور الأدبية المختلفة بقدر ما نود ان نناقش آراء أستاذنا الفاضل في مسألة ترتبط بكليهما أي الرواية والتدوين ألا وهي مسألة (اسرار التدوين الزائف في العصر العباسي)، وهو موضوع واسع وشائك، ذهب فيه الدكتور الزبيدي مذاهب شتى، وسنحاول ان نقف على جوانبها جميعاً، ولا نترك شاردة أو واردة إلا وتقصيناها بالبحث والإثبات.

لقد ألف الدكتور الزبيدي كتابه (في الأدب العباسي) مُناقِشاً في ثناياه آراءً خطيرة تحفها بعض الأفكار التي ربما نطلق عليها (الغريبة)، و اقترب الدكتور الزبيدي فيها من آراء الأستاذ الدكتور(طه حسين) في كتابه (في الأدب الجاهلي). ويمكن بيسر ملاحظة درجة التقارب بين عنواني الكتابين، ويمكن أن تعجب أكثر إذا عرفت ان الدكتور الزبيدي خطا بخطوات ثابتة آثار الدكتور طه حسين في التشكيك بصحة الشعر الواصل إلينا عن طريق الرواة والنسّاخين. وها هو يصرح بذلك ذاكراً :((لما كانت أسباب العبث والانتحال متعددة فقد استفدت من كتاب (في الأدب الجاهلي) للدكتور طه حسين في تصنيف تلك العوامل وتعدادها وقد كانت تلك العوامل التي كشفها طه حسين عاملة أيضاً في الأدب العباسي مع اختلاف هنا وزيادة هناك وليس هذا بعجيب فالرواة والناس في كل زمان ومكان، وحتى في عصرنا هذا يخضعون عموماً لتأثيرات متشابهة ومختلفة، وطبيعي ان تخضع رواية الشعر والنثر وتدوينهما لهذه التأثيرات حتى يصبح موضوع

الانتحال والعبث مشكلة يجب بحثها في كل حين وفي كل زمان ومكان))(1). فالفرادة في طرق الموضوع هو سعة الدراسات والأبحاث التي دارت حول الشك في صحة الشعر الجاهلي إلا ان الشك في صحة الشعر العباسي لم يتناوله أحد من قبل بحسب علمنا، فهي شجاعة من الدكتور الزبيدي في إصراره على بث دعواه حتى لو تعرض لسيل من الانتقادات؛ فأولُ ما يتبادر إلى الذهن هو كثرة المدونات وشيوع الكتابة وتطور أدواتها، فضلاً عن وصول مراحل التدوين إلى حد المنهجية العلمية المنظمة على يد كبار العلماء منذ القرن الثالث الهجري وما بعده.

إن موضوع الشك والنحل والانتحال والوضع بمسمياته المختلفة قد خاض فيها النقاد القدامى والمحدثون وأولهم ابن سلام الجمحي في كتابه (طبقات فحول الشعراء)؛ فقد ذهب إلى ان الشعر تشوبه بعض أعمال تدخل الرواة في تشويه صورته الحقيقية, وقد تصدى لهذه العمليات آخذاً على عاتقه تناول هذه القضية المهمة بشيء من التقصي والبحث والدراسة، متهماً عناصر كانوا اليد الفاعلة في إفساد الشعر؛ ومنهم حماد الراوية وخلف الأحمر وغيرهما(2). ولم يتوقف الأمر على ابن سلام بل جاء بعده نُقاد كثر، وليس همنا هنا أن نتطرق إلى ما تناولوه من دراسات، بل ما يهمنا هو رأي الدكتور الزبيدي في طرح قضية لا تقل أهمية عن القضية التي ذكرها طه حسين في كتابه آنف الذكر، إذ يقول: ((فلن تكون الأمة العربية أول أمة انتحل فيها الشعر انتحالاً وحمل على قدمائها كذباً وزوراً، و إنما انتحل الشعر في الأمة اليونانية والرومانية من قبل وحمل على القدماء من شعرائهما))(3)، فقول الدكتور طه حسين السابق يتيح للقارئ أن يفهم ان موضوع الانتحال لا يقتصر على أدب أُمة معينة، و إنما يتعدى ذلك إلى أمم وشعوب وعصور، وهذا عين ما طبقه الدكتور الزبيدي على أدب الحقبة العباسية إذ يقول: ((كأن الباحثين ينسون أن مصانع الشعر المنحول والخبر المكذوب قد بدأت عملها الجدّي في مطلع العصر العباسي، وهنا كان من الطبيعي أن تتخذ موادها الأولية من العصرين الجاهلي والإسلامي))(4).

إن كلام الدكتور الزبيدي يشير إلى أن موضوع الشك ليس جديداً، وإن خوضه فيه دفعه إليه سبب رئيسي يقوم على دهشته حيال هذا الأمر فيقول مستفهماً عن الذين ((كشفوا عوامل الانتحال والوضع وغيرها من أسباب الصنعة في تاريخ الأدب الجاهلي والإسلامي صمتوا صمتاً يكاد يكون مطبقاً أمام الأدب العباسي، فما هي أسباب هذا الصمت الغريب؟ أكان نتيجة للتوهم بأن عوامل الانتحال والصنعة والغلو قد وقفت في العهد العباسي، أم كان صدى لضخامة أدب ذلك العهد ولقربه النسبي منا فلم تتوفر الجرأة الكافية في نفوس الباحثين لمواجهة القيمة الزائفة العالقة بأخبار ونصوص شعراء ذلك العهد وكتّابه))(5). إن استفهام الدكتور الزبيدي السابق جاء إدراكاً منه بضرورة عدم الفصل بين العصور الأدبية؛ كونها امتداداً تاريخياً واحداً ولا يحق لنا أن نسقط ما يطرأ من أحوال سياسية أو غيرها لتكون مسمىً فاصلاً بين هذا التاريخ الطويل الممتد عبر قرون طويلة ..

سعى الدكتور الزبيدي جاهداً للوصول إلى هدفه المنشود محاولاً إقناع المتلقي بوجهات نظره على الرغم من تأكده من ((أن القارئ لا بد أن تتزعزع ثقته بقسم لا يستهان به من أخبار الأدب العباسي وأشعاره، و إنه سيكفر بكثير مما ورثناه ودرجنا عليه))(6). ان قضية خطيرة كهذه لا بد أن يواجه فيها كماً من الانتقادات، إلا أنه استقبلها بصدر رحب وراح يفسر وجهات نظره للقارئ ويدافع عنها قائلاً: ((إنني لم أحاول إلقاء الكلام جز افاً بل أردت أن أبين الأسباب وأشرح الدو افع لكي يستطيع الباحث أن يميز بين الأصيل والدخيل وبين الصادق والكاذب وبين الحقيقة المعقولة والحقيقة الباطلة المنقولة))(7).

فلعل الدكتور الزبيدي قد أدرك مقدار الضجة التي ستقع في حال نشر هذه الآراء التي تصدم الدارس لحين من الوقت، فكلنا يعرف آراء طه حسين في قضية الشك التي أثارها حول الشعر الجاهلي ولاسيما عند تعرضه لمسألة النصوص القر آنية، والحديث النبوي الشريف، وهو موضوع يحمل من المصاعب الشيء الكثير؛ لذلك وقف بالضد منه الأعم الأغلب من النقاد محاولين إثبات نقيض أفكاره في هذا الجانب، وقد بنى الدكتور الزبيدي أحكامه في قضية الشك في صحة الشعر على عوامل ارتآها في هذا الموضوع أولها تأثره بأفكار باحثين مشهورين هما طه حسين وبلاشير وهذا يعطي صورة عن التأثر الذي أصاب الدكتور الزبيدي فيما طرحاه من آراء كثيرة(8). ومن ذلك رأيه الحاسم في

قضية طالما ألح عليها وهي أن العصر العباسي كما ذكرنا هو امتداد للعصور السابقة له، فلا بد أن يسري عليه ما سرى على ما سبقه، فلم يخلُ من الانتحال والإختلاقات والأكاذيب وعمليات الزيادة والنقصان التي لاحقت الشعر والنثر على حد سواء. وحاول الدكتور الزبيدي إثبات دعواه هذه عن طريق تطبيق عوامل الانتحال على الحقبة العباسية، فلو تساءلنا عن حال الشعر آنذاك والكيفية التي تناقل بها الشعراء شعرهم ندرك جيداً أن العصر العباسي كان عصراً مزدهراً، ووصل فيه التأليف مرحلة كبيرة، فكيف إذن قد تعرضت هذه الأشعار والأخبار والنصوص وغيرها إلى الدس والتغيير؟

إن الاختلاف واضح بين العصر الجاهلي والعصر العباسي، فالعصر الجاهلي وصدر الإسلام كانا عصري روا ية شفوية، والكتابة كانت ضعيفة وبدائية؛ فلا بد أن يصيب النتاج الأدبي آنذاك الضياع والتحوير، بينما يختلف العصر العباسي اختلافا جذرياً عن تلك المرحلة التاريخية. بقي أن نعلم كيف تخلل التحريف تلك النصوص المدونة بحسب ما بيّنه الدكتور الزبيدي في كتابه (في الأدب العباسي)، فعلى الرغم من الطرق العلمية التي خاض فيها نقاد هذا العصر وعلماؤه إلا أن آفة اضطراب الأخبار قد تمكنت منه إذ أكده الصولي حين تحدث عن نسخته في أخبار أبي تمام قال: إن ((اختلاف الناس في أبي تمام واضطراب رو ايتهم لشعره فإنهم بعد إتمام هذه النسخة يجتمعون عليها ويسقطون غيرها كما كانوا مختلفين في شعر أبي نواس وأخباره ثم اجتمعوا عليه بعد فراغي منه حتى أن النسخة من شعره من غير ما عملته لتباع بدراهم قد كانت قبل ذلك تُبـاع بعددها دنانير ولعلها بعد قليل تُفقد فلا تُرى وتسقـط فلا تُرَاد وقد رأيتُ أعزك الله بعض هؤلاء الجهلـة يُصحف أيضاً على أبي تمـام ثم يعيب ما لم يقلْه أبو تمام قط))(9). وواضح من القسم الأخير في كلام الصولي ان تعمد التصحيف في شعر شاعر لامع مثل أبي تمام بهدف توجيه النقد له وبيان أغلاطه وفساد منهجه وهذا كله من أجل التقليل من شأنه، وهذا جزء مما يسمى بالعصبية الفنية التي سنقف عندها لاحقاً.

وكذلك يؤكد لنا أن جمع الشعر آنذاك كان بدافع الربح وكسب المال، وهذا العامل يدفع بضعاف الأنفس إلى زيادة النسخ، وهذا ما أكده الدكتور الزبيدي حين أشار إليه قائلاً: ((إن أحد العوامل الخطرة هو العبث بالأخبار والنصوص أعني عامل المتاجرة والربح برو اية الشعر والخبر وجمع الدواوين وشرحها))(10) ، وبذلك تكون آفة الربح التي يستحصل عليها الرواة عن طريق هذا الباب هي مسلك الخُسران والندامة، كما وصفه الجاحظ حين تحدث عن العلم والأخطار المحيطة به وأجملها بأربعة قائلاً: ((فآفته النسيان، ونكده الكذب، وإضاعته وضعه في غير موضعه، واستجاعته انك لا تشبع منه ... ولأن الرواة إذا شغلوا عقولهم بالازدياد والجمع عن تحفظ ما قد حصلوه وتدبر ما قد دونوه كان ذلك الازدياد داعياً إلى النقصان وذلك الربح سبباً للخسران))(11).

ان أفكار الدكتور الزبيدي كثيرة وواسعة مبثوثة في ثنايا مؤلفاته اعتمد في سردها على عوامل عديدة منها وأهمها: موضوع (العصبية الفنية)، والعصبية: هي ما ينتج بين المجتمعات وفئاته من خصومات ونزاعات وعداوات، وتشتمل هذه العصبيات على أنواع مختلفة منها: ((الدينية أو السياسية أو القبلية أو العنصرية أو المتاجرة بالرو اية والأخبار والتأليف أو العصبية الفنية التي انعكست في حركة التدوين والرو اية أيضاً))(12). لقد أسهب الدكتور الزبيدي وأطال الحديث في النوع الأخير من العصبيات لأنه أراد تسليط الضوء على دور هذه العصبيات في إتلاف الشعر أو النثر ولكن كيف تنشأ هذه العصبيات؟ وما الآثار التي تتركها على الأدب؟ حتى يكون ذلك سبباً في تزييف الحقائق وعدّها سبباً من أسباب الشك في صحته. وللإجابة عن هذه التساؤلات نعمد إلى تحليل أفكار الدكتور الزبيدي في هذا الموضوع وكشف ما توصل إليه من نتائج. إن ارتباط هذه الخصومات والعداوات بالنواحي الفنية أي اقتصارها على الفنون الأدبية وأولها و أبرزها الشعر يكون نتيجة الحقد والكراهية التي تنشأ بين الشعراء، وإن هذا الأمر يترك آثاره السلبية على ناحيتين مهمتين، الأولى: إعراض النقاد والمؤرخين عن تسجيـل أبيات الشاعـر ورو ايتها، وهذا يصل بنتاجـه الفكري والأدبي الثر إلى الضياع والاندثار. والثانية: تتعلق بمحاولة تشويه المتبقي منها عن طريق نسبتها إلى شاعر آخر أو نسبة أبيات ضعيفة وركيكة إليه؛ لجعلها سُبّة تُسَجل عليه فضلاً عن تغيير أبياته، أما بالإضافة إليها أو الحذف منها أو تبديلها(13). ولكي يؤكد الدكتور الزبيدي قوله لا بد من أدلة يثبت بها دعواه، لذا ضرب مثلاً بابن الرومي، فعلى الرغم من ((أهميته ومركزه

الفني الممتاز بين شعراء القرن الثالث ... كان بعض الرواة يسخرون منه ويضعون عليه النوادر والحكايات، أضف إلى هذا أن موضوعات شعره فيما عدا المديح والوصف كالهجاء المقذع الكاريكاتوري ووصف الأطعمة بشراهة واضحة لم تكن تعجب أنصار الذوق المحافظ ... وقد كان من نتائج هذا وغيره أن ترك أولئك الرواة تسجيل أخباره، أو سجلوا ما راق لأهوائهم منها وأهملوا الباقي))(14) ، على هذا النحو كانت العصبية الفنية من أهم العوامل التي أدت وتؤدي إلى تشويه الأدب وهذا عين ما تناوله طه حسين في كتابه في الأدب الجاهلي عندما تعرض للموضوع نفسه(15).

أخذت هذه الظاهرة حيزاً كبيراً من اهتمام الدكتور الزبيدي فخاض في ((تأثيراتها الإيجابية والسلبية عند صياغة الأخبار والعبث بالنصوص والمواد التاريخية الأخرى الخاصة بالأدب العباسي ... فالتعصب لطريقة الشاعر في نظم الشعر أو طريقة الكاتب في الكتابة كان عاملاً من العوامل التي تدخلت في تلفيق الأخبار وتحريف بعض نصوص الشعر والنثر؛ لتبرير موقف المتعصبين لفن الشاعر والكاتب، ولإرضاء المعجبين والأنصار ويقوم المتعصبون على الشاعر والر افضون أو الكارهون لمذهبه بضروب أخرى من العبث والتحريف والتصحيف والتزوير والوضع والاختلاف؛ لتبرير مو اقفهم وآرائهم، أو للرد على أنصاره ودحض آرائهم؛ ونتيجة لعبث أولئك وهؤلاء تعرض قسم من أخبار الشاعر أو الكاتب وجزء من شعره أو نثره للأضرار التاريخية واللغوية والفنية))(16). ومن الشواهد الأخرى المؤكدة حول ذلك ((أن دعبلاً كان يشنأ أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهور فلا يقبل قول شاعر في شاعر، وأما ابن الإعر ابي فكان شديد التعصب عليه لغر ابة مذهبه ولأنه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه، ولا يعلمه فكان إذا سُئل عن شيء يأنف أن يقول لا أدري فيعدل إلى الطعن عليه))(17)، ولم تكن العصبية الفنية هي الوحيدة في الساحة الأدبية لتكون هذا العبء الكبير الذي أطاح بكتب الأدب لتمتلئ صفحاته بعمليات التلاعب، بل تعدت ذلك إلى العصبيات السياسية والدينية وغيرها، يقول الدكتور الزبيدي: ((إن المعركة الفنية بين الذوق القديم والجديد وتطور التجارة بالأخبار والأشعار واهتمام الأجيال الجديدة من الرواة بأخبار العصر وأشعاره لم تكن هي الوحيدة في ميدان العبث بالحقيقة التاريخية في الأدب العباسي؛ فقد كانت هناك معارك أخرى ربما كانت أشد ضراوة و أكبر خطراً منها الصراع بين الزندقة والإسلام والعروبة والشعوبية والصراع بين المذاهب والنحل المختلفة كالشيعة والعباسية والمعتزلة والحنابلة وغيرهم من أهل السنة ... وإن كثيراً من الشعراء والكتاب والرواة قد تناهبتهم هذه المذاهب المتنازعة فاصطدم بعضهم ببعض))(18).

ومن هذا القول نفهم أن عامل العصبية الدينية كان له أثره البالغ في بث الأخبار الكاذبة وإخراجها عن مسار الحقيقة والصدق، وللاستشهاد على قضية أثر هذه العصبيات في تحوير وتغيير الشعر منها ما اتخذته المعتزلة من اتهامات ليست بالهينة لتُطيح بأعدائهم ولتوقع بهم جميعاً ليسقطوا صرعى في شِباك المكر والدهاء لا يستطيعون أن يردوا على هجماتهم تلك(19). وتلك التفاتة جميلة لا نرى أحداً قبله على ما نظن قد طرقها أو وظفها في موضوع الشك؛ إذ بيّن لنا أن عمليات البغض والخصومات كانت سبباً في إضرام نيران العبث في أشعار الشعراء، ومن أمثلة هؤلاء ما فعله الشيخ المعتزلي ثمامة بن الأشرس مع أبي العتاهية وكذلك المعتزلي أبو هذيل العلاف وما عمله مع العباس بن الأحنف(20)، إذ كان بين ثمامة بن الأشرس و أبي العتاهية خِلاف في مسألة الجبر وخلق القرآن وغيرها وكثيراً ما كان أبو العتاهية يجادله ويشاكسه، ويروي الثاني الأخبار التي تسيء إليه(21). أما أبو هذيل العلاف فقد كان من أئمة المعتزلة المتعصبين من الشعراء المجان كأبي نواس وغيره، فقد وردت له آراء كثيرة تكفر وتلعن الفجور الوارد في أشعارهم(22). وهذا كله يجرنا إلى القول أن العصبيات الدينية كانت واحدة من أهم ما أراد الدكتور الزبيدي أن يوصله إلينا ليجعلها باعثاً آخر من بواعث انتشار الشك في صحة الشعر، بعد أن وقف المؤرخون منها ((موقف الحائر ولاسيما أمام تلك الأخبار ذوات المدلولات الدينية المختلفة وكثيراً ما لجأوا إلى الافتراض والترجيح))(23).

وعلى هذا النحو أدت الخصومات الدينية دوراً كبيراً في ((تشويه السمعة وضياع كثير من الحقائق التاريخية زيادة على ذلك كان كلٌ يتعصب لنفسه أو لأنصار مذهبه ويتهم رواة المذهب المخالف له بالكذب والتزوير والانتحال))(24)، ومن أبرز مَن مثّل لهم في هذا الباب شخصيتان بارزتان تنوعت الرو ايات حول شعريهما، الأول: هو بشار بن برد الذي وُصِف بكونه زنديقاً وشعوبياً، ولديه أشعار في الإلحاد، هذا من جانب ومن جانب آخر وُجِد له شعر يصف إسلامه فما

سبب هذا التناقض، ألا يثير الحيرة والشك! والشاعر الثاني: هو أبو نواس كونه شاعراً ماجناً خليعاً قضى حياته في تقديس الخمرة، إلا أن أشعاراً كثيرة وُجِدت في ورعه وزهده وتوبته؛ حتى أن الدكتور الزبيدي ينقل: أنه عثر على مخطوطة قد كُتب عليها الزاهد العابد التقي الورع أبو نواس ويستغرب لذلك أشد الاستغراب!!(25). والآن بعد هذا العرض لدور العصبيتين الفنية والدينية في تغيير الحقائق وتزييفها لم يبق سوى عرض عوامل أخرى ارتآها الدكتور الزبيدي تجري في المنوال نفسه، فقدحت في ذهنه مسألة أخرى لا تقل أهمية عن سابقتها ألا وهي (القصص)، إذ تُعد القصص من ضمن ما استنبطه عند سبر أغوار هذا الموضوع الخاص بالشك؛ لتكون سبباً مهماً آخر من أسباب عبث الرواة. ولنا أن نسأل كيف كان القصّاصون يتعاملون مع القصص التي جرت على ألسنتهم؟ وكيف دخلها الاضطراب والانتحال؟

تناول الدكتور الزبيدي هذا الموضوع بإسهاب ليعطي تصوراً واضحاً للقارئ بأن للقصاصين دوراً مهماً عندما ((تناولوا الشخصيات الأدبية العباسية من الشعراء والعلماء والأدباء فحشروهم في أقاصيصهم، كما حشروا الخلفاء وكبار رجال الدولة وعلمائها لأسباب وعوامل سياسية وعصبية وشخصية))(26)، ومن أبرز أنواع القصص التي لفتت انتباه الدكتور الزبيدي فأفاض فيها بمقدار فصل كامل من كتابه (في الأدب العباسي) هي القصص الغرامية؛ لأنها على وفق رأيه: ((أصبحت مادة دسمة للقصاص حتى كادت تفقد قيمتها التاريخية وأعني بها القيمة الفنية أو القيمة الأدبية الصرفة))(27). لقد تعرض شوقي ضيف لهذا الموضوع وعدَّ هذه القصص ((منحىً قديماً بدأه امرؤ القيس ونمّاه من بعده الأعشى ثم كان العصر الأموي فتعلق به عمر بن أبي ربيعة وأضرابه))(28)، وقد رصد شوقي هذا التوجه في النص الأدبي، أما الدكتور الزبيدي فقد رأى أن امتداد فكرة ربط القصص الغرامي بالشعراء بوصفها أخباراً مشوقة، وملائمة للمحتوى الشعري، حتى وإن كانت هذه الأخبار ملفقة، ويبدو لي ان ذلك يفقدها قيمتها، وقد بحث الدكتور الزبيدي عن ذلك في تاريخ العصر العباسي فوجد شواهد كثيرة حول ذلك؛ ليدلل على صحة ما ذهب إليه فرأى ان القصص الغرامي يشمل جوانب ((الحب والغرام وعشق الجواري والغلمان والمغامرات العديدة العجيبة ... لأن الأقاصيص المتعلقة بالمجانين وحبيباتهم تبدو بالغة السذاجة وبالغة الصغر إذا قيست بالروايات الكثيرة الضخمة التي تدور حول مغامرات شعراء العصر العباسي ... التي تدور على عشرات الجواري والغلمان))(29). وحاول الدكتور الزبيدي التعمق في هذا الموضوع باحثاً عن تجارب الشعراء مع محبوباتهم، فالأمثلة كثيرة منها: ((أخبار بشار مع عبدة وبعض جواري البصرة وأخبار أبي نواس مع عنان وجنان وخالصة وغيرهن ... والعباس بن الأحنف في أخباره مع فوز والبحتري مع علوة وغلامه نسيم و أبي تمام مع القيان و ابن المعتز مع شره...))(30). وإذا أخذنا أحد الشعراء السابقين لنتبين أثر التلاعب الحاصل في قصائده، وليكن العباس بن الأحنف، نجد أن ياقوت الحموي يذكره في معجمه ويؤكد أنه شاعر غزل أكثر منه في الأغراض الشعرية الأخرى، ويحكم على شعره ليقول: ((شعره كله غاية في الجودة والانسجام والرقة وله ديوان لطيف يتداوله الناس وفي بعض نسخه اختلاف))(31). فالعبارة الأخيرة تكشف عن تعرض الديوان لكثير من المشكلات التي سببها الرواة وجامعو الشعر ممن أسهموا في التلاعب بمضامينه؛ كزيادة بعض الأشعار عليه أو نسبة بعضها إلى غيره وغير ذلك من الأضرار التي أصابته.

ووجد الدكتور الزبيدي علّة أخرى قد تكون سبباً مباشراً أودى إلى التشكيك في صحة القصص وغيره، ألا وهو ((أن قيمة هذا القصص محدودة في تاريخ الأدب وقد لا تكون لها قيمة على الإطلاق ... فالوضع والصنعة والأكاذيب وألوان الخيال تفتقد عنصراً تاريخياً جوهرياً، وإن هذا العنصر هو انفكاكها من الزمن))(32)، فهذا القول واضح وجلي إذ كلما ابتعدت هذه القصص عن زمنها الحقيقي يصيبها الخلل والاضطراب.

والتفت الدكتور الزبيدي في كتابه (في الأدب العباسي) إلى ما تسببت به (مهنة الوراقة) من عبث في صحة الشعر، إذ رأى أن هذه المهنة كانت مبعثاً مهماً من مباعث الشك وذلك يدعونا إلى البحث عن إسهامات الوراقين و أثرهم في بناء اللبنة الأولى والمؤثرة في الحضارة والثقافة العربية، ولاسيما في العصر العباسي وما تلاه. وهذا الأمر أي معرفة الدور الذي قاموا به قد أسهب فيه الباحثون ولم يتركوا شاردةً ولا واردة إلا وتناولوها بالبحث والدراسة، وبقي أن نعرف أثر الوراقين من الوجهة الأخرى، و أقصد هنا أثرهم السلبي في إعياء الأدب وتحميله ما لا يليق به، وهذا على وفق رأي

الدكتور الجليل علي الزبيدي، الذي ربط هذه الصناعة وازدهارها بأسباب وعوامل عديدة منها ما أسماها بـ(المادية) و(الربحية) التي طالما دفعت الأشخاص القائمين بها إلى خروجهم عن ضوابط الدقة وأصولها في نقل المعلومات إلى شيء من الحرية؛ لأنه قد رجّح كفة الربح على كفة الأمانة العلمية(33)، فكان من آثار ذلك أن يغيّروا ويحّوروا النسخ التي وقعت بين أيديهم؛ أما بالزيادة والإضافة أو الحذف والنقصان أو بطريق آخر، وهو نحل هذه النسخ ونسبتها إلى غير مؤلفيها، وهذا لا يقل شناعة عن فعل السُراق وذلك ما لم يقله الدكتور الزبيدي إعتباطاً، بل اعتمد في ما قال على آراء النقاد القدامى، التي تبين أثر أعمال هؤلاء المخزية والجالبة للنقد والانتقاد، ومنها على سبيل المثال لا الحصر آراء الصولي في أخبار أبي تمام(34)، وكذلك ابن النديم في كتابه الفهرست(35)، و ابن الجوزي في كتابه المنتظم(36)، والحموي في معجمه(37) وغيرها ... إذ نقل هؤلاء: أن هذه المهنة ارتبطت بزيادة النسخ للمخطوطات التي وقعت بين أيديهم، والتي أخذوا ببيعها بأبخس الأثمان في حين كان الحصول عليها متعسراً لغلاء سعرها. من هنا انطلق الدكتور الزبيدي في ذلك الشك ليقول: ((كان أولئك التجار يقومون بعملية نسخ الكتب ووضع المجاميع الشعرية والمختارات وشروحها وتكديس النوادر والأخبار والشواهد بطريقة لا تعنى بالتحقيق والتروي ولا تهتم بالتثبت من صحة ما قيل وما يقال))(38).

وأسهمت عوامل عدة بحسب رأي الدكتور الزبيدي لتجعل الوراقين يتجهون نحو عدم المبالاة وانعدام الإحساس بالمسؤولية التاريخية، فحرّفوا الحقائق التاريخية بسبب العامل آنف الذكر المتعلق بجمع المال، ومثّل له الدكتور الزبيدي بشاهد شعري لثمامة السدوسي يقول فيه:"السريع"

((يا رُب بيضاء من العراق تأكل من كيس امرئ ورّاق!

... إشارة إلى أكياسهم الثقيلة الممتلئة بالدراهم والدنانير))(39). فضلاً عن هذا العامل هناك عامل آخر يتعلق بنيل الشهرة وهذا لا يحصل إلا بتصنيف الكتب ونحلها لأنفسهم، أو بلصق اسم كاتب كبير، أو مؤلف مشهور لتروج وتنفق في السوق(40). أما العامل الآخر الذي دعا إلى التصحيف والتحريف الذي نُسِب إلى الوراقين هو عامل الترجمة، وقد يكون لهذا العامل دوافع تجر القائمين بها إلى أن ينسبوا بعض الكتب لغير مؤلفيها على أساس علمهم واحترافهم لأكثر من لغة وجهل الآخرين بذلك فيعملون، ومن غير مراعاة للضمير العلمي؛ إلى إلصاق اسم المترجم بمؤلَف معروف أو كتاب مشهور لتروج هذه المترجمات في السوق ويُستفاد من ثمنها، ومن أمثلة ما ذكره الدكتور الزبيدي هو استعمال البرامكة للوراقين، إذ كان ذلك مشفوعاً بإغداق الأموال عليهم لا لوجه الله والعلم، مستشهداً بأبي العيناء الذي ذكره المسعودي في كتابه مروج الذهب، وهو أحد شعراء وظرفاء أواسط القرن الثالث، إذ ناله من كرم البرامكة الشيء الكثير نتيجة عمله في ترجمة كتبهم(41).

لا نريد ان تفوتنا فرصة الإحاطة بكل ما طرحه الدكتور الزبيدي، إذ إن من واجبنا أن نلم بكل ما قاله ونكشف عن لبنات أفكاره في هذا المجال الذي يصب في تدعيم آرائه حول موضوع الشك في صحة الأدب العباسي، فقد أدخل سبباً آخر قد يؤدي بالوراق إلى التحريف، وهو جهل الوراق بأهمية المعلومات الواردة في متون الكتب وهذا ما سبّب في تعدد النسخ الخاصة بالمؤلفات التي وصلتنا عن العصور السابقة. وليؤكد الدكتور الزبيدي كلامه اعتمد في رأيه هذا على قول الصولي في كتابه المزهر: ((إن مهنة الوراقة قد ضمت جماعات كان همهم الربح الكثير بالجهد القليل، هذا فضلاً عما يخلّفه جهل النقلة من الوراقين من ارتباك في متون الكتب التي ينقلونها، قال الصولي وهو يتحدث عن كتاب العين المنسوب للخليل: (وقد حشّا الكتاب تخوم علماء إلا إنهم لم يؤخذ عنهم رواية إنما وجد بنقل الوراقين فلذلك اختل الكتاب) وإن القرون العباسية المتأخرة والقرون التالية المظلمة قد شهدت فيما شهدت تدهور مهنة الوراقة ودخول عناصر جاهلة أو ضعيفة أو مستغلة فيها))(42). من العرض السابق نفهم أن الدكتور الزبيدي لم يقصر الشك على عوامل الرواة والعصبيات الفنية أو الدينية، ولا حتى على القصص باختلاف أنواعها بل أدخل الوراقين من ضمن أبرز العوامل المؤدية إلى الشك في صحة الشعر العباسي ومنها نسبة الأبيات إلى غير قائلها وهذا ينطبق على معظم الشعراء آنذاك، ومنهم أبو نواس فقد ((خص شعر أبي نواس من لهج بإضافة المنحول إليه بما ليس في غيره من الأشعار؛ وذلك

أن تعاطيه القول في الشعر كان على غير طريقهم، لأن جل أشعاره في المديح والغزل والمجون ... و أقل أشعاره مدائحه، وليس هذا طريق الشعراء الذين كانوا في زمانه وكانوا من بعده ... لذا ألحق الناس بشعره كل ما وجدوه من جنسه من الشعراء الذين لم ينتشر شعرهم))(43).

بعد هذا العرض لعوامل الانتحال وعبث الرواة كما حددها الدكتور الزبيدي، يتبين الدور النقدي الذي مارسه عند بحثه عن الحقيقة التاريخية، ومحاولة كشف تفاصيل اكتنف بها العمل الأدبي شعراً ونثراً من مرحلة إنتاجه حتى وصوله إلينا، فتقصى دواخل النص والعوامل المحيطة به، التي أدت إلى انتحاله والتلاعب فيه فعلى الرغم من الدراسات العديدة التي تناولت أدب عصر ما قبل الإسلام، إلا أن الدراسة التي انتهجت نزعة الشك في صحة الشعر العباسي قد انفرد به الدكتور الزبيدي على ما نرى؛ فتبنى هذه الفكرة وأحاط بخفاياها وسبر أغوارها لتكون النتيجة ثمرة أهداها لطلبة العلم والدارسين والباحثين في هذا المجال، وبثّها في ثنايا كتابه (في الأدب العباسي) وبحوثه عن الانتحال والعبث حتى أوصلنا إلى نتيجة مهمة ألا وهي: ((أن عوامل الانتحال والعبث والوضع والتزوير والتشويه والطعن والتصحيف والتحريف تطبع بصماتها على قسم غير قليل من المواد الخبرية والتاريخية ولم تسلم حتى النصوص والمتون الشعرية من هذه العلل والآفات إذ ان هذه العوامل كانت فعّالة قوية في العهد العباسي وكانت المنافسات والأحقاد والصراعات والعصبيات المذهبية والسياسية والفنية والأغراض الانتهازية والمصالح الاقتصادية في أوجها))(44).

ومن أشكال الشك لدى الدكتور الزبيدي بحثه عن الثغرات والإشكاليات التي سُجلت في تاريخ الأدب ليكون مسوّغاً ودليلاً دامغاً يساعده في بث دعواه، إذ نراه يقول في معرض حديثه عن أحد رواة بشار وهو محمد بن القاسم بن مهرويه الذي روى عن بشار بصورة مباشرة، وكيف أن المؤلفات التي صُنعت في القرن الثالث والرابع كالموشح ومعجم الشعراء للمرزباني وكذلك الأغاني لأبي الفرج والفهرست لابن النديم فلو لم تُجمع المصادر على اسم هذا الراوية لكان مبعثاً في طعنه بصحة المعلومات التي نُقلت عن لسانه(45) ولكن ما عسانا نفعل أمام هذا المد من التزييف في الحقائق، لعل الدكتور الزبيدي دعا كما فعل الآخرون إلى ضرورة غربلة المعلومات والتأكد من صحة نسبة الكتب والنصوص إلى مؤلفيها. فكلنا يعرف أثر الرواة في الكشف عن حقيقة الأدب الذي وصل إلينا، وهذا لا يمنع من معرفة أنواعه، إذ نراهم ((يختلفون فمنهم العلامة المتزن والراوية المتقلب والإخباري المغرض ومنهم آخرون قد يوصفون بالخفة أو الغفلة أو قصر النظر أو سرعة التصديق وقلة العلم، فرواية الأخبار صنعة والصنعة فيها البارع الحاذق والمغفل الأبله وقديماً قالوا: وما آفة الأخبار إلا رواتها))(46)، فهذا القول يقسم فيه الدكتور الزبيدي الرواة إلى: ثقات وعلماء كان همهم تقليب الروايات والأخبار التي تصلهم بحثاً عن حقيقة أمرها وهناك رواة آخرون غير ثقات ينقلون المعلومات من دون تحرز وتثبت.

إن التقسيم آنف الذكر ليس جديداً بل هو معروف منذ القِدم، طرحهُ النقاد سابقا لينتهوا إلى نتيجة مفادها ان الخبر الأدبي المروي أو المدون قد أصابته مختلف الآفات من وضع أو كذب أو تحريف أو تصحيف أو انتحال، وقد أفاد أهل الأدب من طرائق جديدة تخفف من هذه الوطأة أو تعمل على إصلاح الرقعة التي ارتمى فيها الأدب، فعملوا على إتباع مناهج علم الحديث وطرائق الجرح والتعديل والتوثيق ((فظهر الرواة الثقات وظهرت بوادر النقد التاريخي بالأشكال الأدبية المبكرة للنقد المنهجي التاريخي عند ابن سلام وغيره واستعمل الإسناد في رواية الأخبار الخاصة بالأدب وسير الشعراء وأشعارهم وكتاب الأغاني خير شاهد على ذلك))(47).

أما دعوى الدكتور الزبيدي الأخرى حول هذا الموضوع المهم والذي أخذ شوطاً كبيراً عنده، محاولاً فيه إيجاد الحلول والبدائل في سبيل إبعاد الشبهات عنه والنهوض فيما تبقى منه، يقول: ((حقٌ علينا ان نتأمل وأن نفكر فإذا مرَّ علينا خبر من الأخبار لا نكذبه كل التكذيب أو نصدق به كل التصديق بل ننظر إذا كان له علاقة بالخصومات القائمة بين رواة الأخبار أنفسهم أو كان للخبر علاقة بالمتخاصمين و أتباعهم والمختلفين و أنصارهم))(48).

مما سبق ندرك أن الدكتور الزبيدي أعطى صورة دقيقة للدارس في عدم الانجرار وراء الأفكار المطروحة وبناء حكم قاصر عليها، أما بتكذيبها كلها أو التصديق بجميعها؛ إذ لا بد من نظرة فاحصة لكل ما يقع بين أيدينا من نصوص خاصة

ما كانت وليدة موقف محتدم نتيجة صراع أو خصومة، وفوق هذا فهو يندد ويعارض ما ذهب إليه المؤرخون عند كتابة وتسجيل التاريخ وما التزموا به من طرائق توثيق تطيح بالحقيقة، إذ إن صناعة الأخبار تحيط بها عوامل مختلفة منها ما يتحكم به خارجياً بسبب ما يعتري المؤلف من ظروف تدفع به إلى ((التحيز والتشيع والغفلة والغلط والوهم والكذب والتلبيس وعدم التميز والانخداع والجهل ونزعة المبالغة والولوع بالغرائب والتملق للسلاطين والحكام وأصحاب التجلسة والمراتب لجني المنافع أو تجنب الأذى والشر))(49).

من هذا القول يتبين لنا أن الدكتور الزبيدي يدعو الدارس إلى أخذ الحيطة والحذر، منبهاً إياه بأن لا يغفل أموراً كثيرة وضغوطاً كبيرة قد تقع على المؤلف، وإن هذه الضغوط سياسية منها واجتماعية و اقتصادية ومذهبية وحتى شخصية فنية؛ فيجب تحري ذلك ووضعه نصب الأعين إذ يجب عدم إغفاله بكل حال من الأحوال، وإن دراسة الأحوال الخارجية للنص ليست هي الوحيدة بل يجب الإحاطة بدواخل النص وما يعتريه أيضاً من عوامل تدفع به إلى موضع الشك ومنها ((خروجه عما يقبله العقل والمنطق وتناقضه والخطأ في نسبته وضعف سنده وغيرها))(50).

من وجهة النظر السابقة يتبين أن بنية النص الداخلية قد تضفي هذه اللمحة الشكية التي تحيط به، والأسباب السابقة في النص السابق واضحة الدلالة لا تحتاج إلى شرح، ولكن هل هذا كل شيء؟ أي هل على الدارس أو الباحث التدقيق والتثبت وإجراء التحري والبحث في عوامل تخص المؤلف والنص فحسب؟

رأى الدكتور الزبيدي وجوب عدم الاقتصار على هذين العاملين، وإنما تحري سبب آخر لا يقل أهمية عن سابقيه وهو ((الأسباب والدوافع الموضوعية أو الغيرية، وهي كثيرة لكن المؤرخين غفلوا عنها بسبب الجهل بطبائع الأحوال في العمران أي الحياة الاجتماعية الإنسانية؛ لأن كل حادث لا بد له من طبيعة تخصه في ذاته وفيما يعرض له من أحواله)) (51).

وبعد كل هذا ماذا يريد الدكتور الزبيدي؟ وما هي دعوته الصريحة حول التوثيق؟ نرى أنه يريد إيصال رسالة فحواها معروف ومهم، ويجب تأكيده فيما يتعلق بالقارئ والمتلقي ((فإذا كان السامع عارفاً بطبيعة الحوادث والأحوال في الوجود ومقتضياتها أعانه ذلك في تمحيص الخبر وتمييز الصدق من الكذب في كل وجه يعرض من وجوه الكسب والمعاش والصنائع والعلوم والجهل بكل هذه الأحوال والظواهر الاجتماعية والطبيعية ونواميسها، يدفع المؤرخين إلى تسجيل أخبار تحكم هذه القوانين باستحالة حدوثها أما إذا اعتمد المؤرخ على مجرد النقل ولم يحكم طبيعة العمران والأحوال فسيقع في الزلل ويحيد عن الصواب))(52).. بعد هذا .. ((فنحن بحاجة إذن إلى دراسة رواية الأدب العباسي وعمليات حفظه وتقييده أو تدوينه بالأسلوب الذي درسنا به تدوين الأدب الجاهلي ولكن مثل هذه الدراسة صعبة، أو قل إن الباحثين لم ينتهوا إليها فأهملوها ولم يحسوا بفائدتها وضرورتها فظلت أرض هذا الحقل بكراً وبقي عدد كبير من الرواة والمؤلفين الذين عنوا بتاريخ الأدب العباسي في عداد النسيان))(53). فهذه دعوة صريحة لوجوب التوثيق ومراجعة الحسابات في كل ما نعتمده عند نقل المعلومة.

والآن وبعد هذا آثرنا على أنفسنا أن نبحث عن أدلة وشواهد داعمة لرأي الدكتور الزبيدي في موقفه الشكي تجاه النتاج العباسي، أو رافضين لما جاء به إذ لا بد من آراء مؤيدة وشواهد داعمة لما ذهب إليه والعكس صحيح؛ إذ أن هناك آراء معارضة وأدلة تقف بالضد من أفكاره.

فقد يتبادر إلى ذهن الباحث أو الدارس أن العصر العباسي عصر ازدهار ثقافي توج باسم العصر الذهبي، وصلت الكتابة وأساليب التدوين فيه إلى مراحل متقدمة عما كانت عليه في العصور السابقة له؛ لذا فمن الصعوبة بمكان أن نتهمه بكثرة الانتحال والعبث والشك في صحة ما نُقل عنه من أخبار وأشعار ومؤلفات وغيرها.

هذا الشيء لم يغب عن ذهن الدكتور الزبيدي فقد كان نبهاً بما فيه الكفاية ليظن أن خروج كتابه (في الأدب العباسي) إلى النور قد يُطاح به فقال: ((إن الانطباع العام الذي توصيه الكتب المنتشرة هو أن عوامل العبث والانتحال كانت مجمدة في العصر العباسي، وإن هذا الأدب مضمون لأنه كثير المصادر، ولأن عناصره معروفة لا يتطرق إليها الشك فأبو نواس هو أبو نواس شخصيته حقيقية بالشكل الذي تصوره الأخبار والنوادر والحكايات))(54).فهو يعترف في

قوله السابق، قد يظن أحدنا أن عوامل الشك والانتحال تقتصر على العصور السابقة والجاهلي على وجه التحديد، كما خاض في ذلك طه حسين وغيره وإنما وقفٌ على تلك الأعصر مجمدة أو معطلة في هذا العصر بالذات ورغبته في إيصال فكرة تقوم على تحريك الأذهان وتنبيهها إلى مسألة مهمة وخطيرة في الوقت نفسه، ولكن هل لاقت استحساناً أم استهجان بعض حال إطلاقها؟

يقول الدكتور الزبيدي: ((أنا أعرض هذا البحث لا لأهل الاختصاص وحدهم بل للقراء جميعاً ليقولوا فيه ما يشاؤون ولعل قسماً منهم سيغضب، كما فعل غير واحد من الأصدقاء والمحافظين الأشداء قال: ألا تكف الحكومة عن إرسال البعوث إلى جامعات الغرب لكي يعودوا بعد ذلك يشوهون تاريخنا وآدابنا وتقاليدنا كيف تريد يا هذا ان تغير نظرتنا إلى الأدب العباسي وان تنكر أخباره وحقائقه؟ قلت له: إنني لا أنكر هذا الأدب بل أريد تصحيح تاريخه لأنني أشك في كثير من أخباره وأشعاره فغضب الرجل وقال: وكيف تنكر الشمس في وضح النهار؟ والحق إنني لا أريد إنكار الشمس في وضح النهار بل أدعو أولئك الذين يضعون على عيونهم نظارات ملونة أو حجباً صفيقة ان يتركوها جانباً ليتركوا النور ينساب بهدوء إلى البحث التاريخي الصحيح، لا حباً بالتاريخ لذاته بل رغبة في عرض الأمور كما هي لفهم الحاضر فهماً جيداً وكشف المفاهيم العصرية لبناء مستقبل أفضل))(55).

ذكر الزبيدي ذلك في مقدمة كتابه (في الأدب العباسي) مصوراً الهجمة التي تعرض لها فور إطلاقه لشكه هذا، وإن لم يدلل لنا مَن هو هذا الصديق؟ هل هو شخصية أكاديمية متخصصة في هذا الأدب أم شخصية مفترضة تطلق الأحكام جز افاً فهناك فرق بين الاثنين، ولكن هل كان هذا الموقف ردعاً للدكتور للزبيدي من إطلاق دعواه؟ لقد ظهر كتابه مبكراً، وأردف آراءه بمباحث نشرها أولاً في مجلة كلية الآداب(56) إلا انه لم يكتفِ بذلك العرض الموجز، فقرر جمع لبنات أفكاره داعماً إياها بمختلف الشواهد والأدلة والحجج والبراهين كما عرضنا ذلك سابقاً.

والآن حان دورنا في عرض آرائه ساندين إياها أو مخالفين بحسب آراء النقاد والأدباء القدماء والمحدثين وقبل ذلك هل عُدَّ الدكتور الزبيدي أول مَن ناقش مسألة الشك في العصر العباسي؟؟ أم هناك مَن سبقه إلى ذلك؟

لو عدنا إلى بطون الكتب وبحثنا جيداً فيها لوجدنا أن الصولي أول مَن قال في ذلك، مُرجعاً أسباب الشك إلى عوامل الربح والتجارة حين قال عن ديوان أبي نواس بعد إتمام نسخه وكيف أن الناس ((كانوا مختلفين في شعر أبي نواس وأخباره، ثم اجتمعوا عليه بعد فراغي منه حتى ان النسخة من شعره من غير ما عملته لتباع بدراهم قد كانت قبل ذلك تباع بدنانير ولعلها بعد قليل تفقد فلا ترى وتسقط فلا تزاد))(57). فإن قول الصولي السابق يدل على أن التلاعب كان موجوداً في تلك القرون و أكثرَمَن التجأ إليه الور اقون والنساخون دليل إثبات لدعوى الدكتور الزبيدي، ولكن هل كان هذا التلاعب شاملاً عاماً لمختلف صنوف الأدب وهل وقف النقاد والشعراء حينها موقف المتفرج؟؟

نرى أن الإعمام مغلوط وخاطئ بالنسبة لأدب عصر كامل وصلت فيه الثقافة إلى ما وصل إليه العصر العباسي، فحين دلّت المصادر على وجود نسب من التلاعب في أدب تلك المرحلة فهذا لا يمنع من وجود تدقيق وتوثيق ومراجعة وتمحيص من لدن الشعراء أنفسهم أو النقاد أو غيرهم فالأخبار تؤكد ((أن أولئك الشعراء كانوا يكتبون أشعارهم بأيديهم أو يكلفون بكتابتها أحد الور اقين أو النساخ أو الغلمان القهارمة (الكُتاب من الغلمان)، عما كان رواة الشعراء الخاصين يكتبونها ويذيعونها أو يملونها على التلامذة وسائر الذين يطلبونها من محبي الشعر))(58)، وهذا إنما يذكرنا بموقف جاء في العمدة من ((ان الشاعر ذا الرمة قال لموسى بن عمرو: اكتب شعري فالكتاب أعجب إليّ من الحفظ؛ لأن الإعر ابي ينسى الكلمة قد تعب في طلبها ليلة فيضع في موضعها كلمة في وزنها ثم ينشدها الناس والكُتاب لا ينسى ولا يبدل كلاماً بكلام))(59).

من آراء الصولي السابقة نلحظ شدة التباين والاختلاف في الكلام ففي الحين الذي يؤكد فيه الصولي وجود بعض التحريفات فيما وصل من أدب، نراه لدى ابن رشيق المتأخر مدى تمسك الشاعر بضرورة تدوين شعره وتوفير المستلزمات التي تدعوه إلى ذلك بتوفير رواة ينشدون شعره ويثبتونه والأمثلة كثيرة على ذلك، وأوردها الدكتور الزبيدي نفسه حين عدّد وأحصى رواة الشعراء العباسيين ليقول في نهاية المطاف: ((لم يكن وجود هؤلاء الرواة بدعة عباسية

بل هي عادة قديمة تقليدية ظلت ملازمة للشعر والشعراء منذ امرئ القيس والمهلهل ويمكن الافتراض ان انتشار الكتابة وتوفر أسبابها وآلاتها الضرورية وارتفاع مستوى الثقافة بصورة عامة وتز ايد الور اقين وازدهار تجارتهم وتوسع أعمالهم وظهور الاحتراف في جمع الشعر ورو ايته. كل هذا جعل رواة الشعراء الخاصين يحظون بأهمية متميزة راحت تزداد كلما مرّت الأيام وبعد العهد بشعر الشاعر وكان بعض الرواة قد احترف تدوين الشعر وجمع دفاتره فضلا عن ممارسة الرو اية الشفهية لكسب الفو ائد المادية والمعنوية ولم يكد يمر بعض الوقت ويهتم علماء بارزون بجمع دواوين الشعراء المحدثين وأخبارهم وتأليف الشروح ... حتى غدا رواة أولئك الشعراء ولاسيما الكبار المشهورين مصادر أولية لا مناص من الرجوع إليها عن طريق الرو ايات المدعمة بالأسانيد المنتهية إليهم لتوثيق المنقولات الشعرية والخبرية كما يفعل أصحاب الحديث))(60).

نريد ان نقف طويلاً على مقولة الدكتور الزبيدي السابقة ونبين مدى الفرق والتناقض الصريح في طروحاته ففي كتابه (في الأدب العباسي) يتمسك بر أيه؛ كون الشعر العباسي في عصوره الأولى كان همّ العلماء والأدباء جمع أشعار العصر الجاهلي والإسلامي وبدأت محاولات تدوين الشعر العباسي أي شعر المحدثين منذ القرن الثالث تقريباً(61)، ولكنه يقرر مستعملاً الحجج والأدلة التي استقاها من بطون الكتب النقدية القديمة ليأتي بما يدعم فكرته من وجود شعر منتحل ومنسوب وغير صحيح وفي كتابه الآخر (دواوين الشعر العباسي)، أكد ومن خلال مقولته السابقة ان الشعراء قد اعتمدوا على رواة وهؤلاء الرواة حملوا رسالة حفظ الشعر وهم وكتاباتهم بمثابة المصدر المهم الذي لا يمكن الاستغناء عنه وكل هذا يصب في بوتقة واحدة وهي التثبت من الشعر ودعمه بالأسانيد المنتهية إليهم!!

وبذلك ليس أمامنا سوى ان نبحث في كتبه للتأكد أكثر مما أورده إذ لا يجب الاعتماد على شاهد واحد أو اثنين فقط، لذا بدأنا البحث وبتمحيص دقيق لنجد اعتر افاً آخر الدكتور الزبيدي يقر فيه أيضاً حقيقة التثبت من الأشعار بحيث لا يخامرها الشك ولا يدخل في ثناياها عبث العابثين، يقول: ((لعل العلماء كانوا يقومون بمراجعة ما خلّفه الشعراء أنفسهم وما يمتلكه كتّابهم وأهلوهم من مدونات ودفاتر وكراريس. ولسنا بحاجة إلى ضرب الأمثلة مرة أخرى بعد ان درسنا أسانيد أخبار بشار بن برد دراسة تحليلية و افية ووجدنا أسماء رو اته السالف ذكرهم تتكرر بكثرة في سلاسل الإسناد وبخاصة في كتاب الأغاني باعتبارهم من أهم الموارد لاستيفاء الأخبار وجمع الأشعار وتوثيقها ..))(62)فما سبب ذلك؟ هل كان الدكتور الزبيدي مشتت الأفكار؟ أم نتيجة كتابتهِ لأجل الكتابة فقط؟ ولكنه يعود بعد ذلك ليقر وفي الكتاب نفسه يتراجع قليلاً عما أبداه من آراء ليقول: انه على الرغم من ((كثرة التأليف وتطور طرق التصنيف وظهور الطر ائق المنهجية الأولى يدحض الشكوك التي أبداها بعض الباحثين من المستشرقين وغيرهم حول هذا الموضوع حين زعموا ان عمليات التدوين لم تكن واضحة ومستقرة في القرن الثاني ... وليس لدينا أدلة حاسمة تخولنا حق تعميم هذه الملاحظة على جميع عمليات تدوين الشعر والنثر ومناهجها في أواسط القرن الثاني))(63)، فهو يحمّل المسؤولية في ذلك بُعد الزمن عن المؤلف وتلقف الرواة لهذه الأشعار والأخبار والتغيير فيها حسبما شاءوا، فنراه يقول: ((ما يلاحظ في مؤلفات هؤلاء من ارتباك واضطراب ونقصان وزيادات فلم يكن من ذنب مؤلفيها بقدر ما كان نتيجة مضي عصرهم و ابتعاده وضياع المدونات الأولى واختلاف النقلة والنساخ وتعاقب أجيالهم فضلاً عن ان مناهج العمل في تدوين الشعر القديم كانت أكثر سعة وتقدماً ونضوجاً))(64).

ومما يلفت النظر أيضاً التفاتة الدكتور الزبيدي في بحثه عن مصادر أخبار بشار إيراده موضوعاً مهماً يكون دعامةً قويةً لكل من يحاول التشكيك في صحة الأخبار ألا وهو موضوع (الأسانيد)، إذ يقول في معرض كلامه عنها: ((إن هذه الأسانيد تلقي ضوءاً على الطرق والأساليب التي اتبعت في جمع أخبار بشار وتدوينها وتمهد السبيل في الوقت نفسه لمعرفة الأجواء التي أحاطت بهذه الأخبار والعوامل المختلفة التي تلاعبت فيها خلال انتقالها من فم إلى فم أو من كتاب إلى آخر))(65).

من هذا نفهم إقراره بأهمية هذه الأسانيد ومشاركتها الفعّالة في كشف التزوير والتلاعب الذي قد يصيب الأخبار أو الأشعار، وذلك من خلال مقارنتها بأسانيد أخرى وردت في مصادر أخرى على حد قوله(66)، هذه الفائدة الأولى للأسانيد

أما الأخرى فقد أوجزها الدكتور الزبيدي في معرض حديثه عن أسانيد يحيى بن علي بن أبي منصور (ت300هـ) أحد رواة شعر بشار، إذ يرى انه قد أطلع المتلقي بأسماء الرواة والإخباريين الكبار الذين عاصروا بشار أو ذكره أسماء من رووا عن بشار فأسماهم أبو الفرج الأصفهاني برواة بشار أو ذكره من عاصر بشار ولم يكن من أهل الرواية والتأليف فأسماهم صاحب الأغاني بأصحاب بشار (67).

ومن ذلك نتمكن من معرفة أهمية الإسناد في معرفة المعلومات التي دونت عن الشاعر وشعره. والجميل في الموضوع ان الزبيدي قد أسهب في ذكر أسانيد يحيى هذا حتى قال فيه انه ((كان يتحرى الدقة ويحاول ان يستقي المعلومات من مصادرها الطبيعية ولم يقلل من هذه الدقة والعناية كون الشعراء الذين ينقل أخبارهم قريبين من زمانه واحتمال وجود آثار مكتوبة دونها أولئك الشعراء أنفسهم أو سجلها لهم كتابهم أو رواتهم أو معاصروهم من محترفي جمع الأخبار أو هواتها))(68). بعد سماع هذا الكلام هل يسري إليك الشك في صحة الشعر العباسي؟؟

واخيرا ان وصول الدكتور الزبيدي إلى تلك الاراء آنفة الذكر كان بفعل تحليله واستنتاجه لما مرّ به الأدب العربي آنذاك، إذ يستفهم بشكل استنكاري عن نشاط الرواة في تلك الحقبة ليقول: ((لقد حظي الأدب الجاهلي بعدد من البحوث التي درست عمليات روايته وتدوينه وكشف نشاط الرواة الذين اشتغلوا بذلك ولكن الأدب الإسلامي والأموي، وأدب المرحلة العباسية لم يكن له نصيب من هذه البحوث فنحن لا نعرف متى دونت أخبار وأشعار القرنين الثاني والثالث الهجريين، ولم ندرس المناهج والطرائق التي اتبعت في هذا التدوين، ولم نتعرف على الرواة والمؤلفين الأوائل الذين حفظوا هذا الأدب من الضياع، ولم يكشف الدوافع التي دفعتهم إلى هذا العمل والوسائل التي ساعدتهم على تحقيقه))(69).

الخاتمــة:

بعد الاطلاع على آراء الدكتور الزبيدي في موضوع الشك في صحة الشعر العباسي بتواضع توصلت الى نتائج عدة منها:

1. تأثر الدكتور الزبيدي باراء شخصيتين مهمتين في تاريخ النقد الادبي هما (طه حسين) في كتابه (في الادب الجاهلي)، والمستشرق الذي درس على يديه في جامعة السوربون بفرنسا (بلاشير).
2. ان العصر العباسي امتداد للعصور السابقة لذا يسري عليه ما سرى عليها من عمليات انتحال الشعر وتحريفه.
3. ان عوامل كثيرة تضافرت لتعمل على التلاعب بمضامينه منها: عامل المنفعة الشخصية التي نهض بها الكثير من الوراقين والصحفيين والقصاصين وغيرهم.
4. العصبيات الفنية والدينية والسياسية وغيرها ساهمت نوعا ما في تزييف الحقائق وتغيير الحق عن مساره حتى نسبت ابيات الى غير قائليها الحقيقيين.

هوامش البحث:

1. في الأدب العباسي، د. علي الزبيدي :5
2. ينظر: طبقات فحول الشعراء :1/46
3. في الأدب الجاهلي، د.طه حسين، ط3، مط فاروق، القاهرة، 1933م1352-هـ :115
4. في الأدب العباسي، د. علي الزبيدي :6
5. المرجع نفسه :11
6. المرجع نفسه :8
7. المرجع نفسه :8
8. ينظر: المرجع نفسه :4
9. أخبار أبي تمام، أبي بكر محمد بن يحيى الصولي، تح وتعليق: خليل محمود عساكر ومحمد عبدة عزام ونظير الإسلام الهندي، قدّم له: د.أحمد أمين، دار

الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1400هـ1980-م :55-56
10. الانتحال والعبث في الأدب العباسي، ق1 :121
11. البيان والتبيين :1/228
12. في الأدب العباسي، د. علي الزبيدي :34
13. ينظر: المرجع نفسه :80
14. المرجع نفسه :81-80 وينظر: 82 (للاطلاع على ما حدث لشاعر آخر هو البحتري)
15. ينظر: في الأدب الجاهلي :126
16. دواوين الشعر العباسي :160
17. جواهر الأدب في أدبيات و إنشاء لغة العرب، احمد بن إبراهيم الهاشمي، مؤسسة المعارف، بيروت، (د.ت) :1/261
18. الانتحال والعبث في الأدب العباسي، ق2 :195
19. ينظر: في الأدب العباسي، د. علي الزبيدي :150 وكذلك ينظر: الانتحال والعبث في الأدب العباسي، ق2 :199-198
20. ينظر: المرجع نفسه :154
21. ينظر: الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تح: سمير جابر، دار الفكر، بيروت :4/19 وللاستزادة ينظر: في الأدب العباسي، د. علي الزبيدي :153-150
22. ينظر: المرجع نفسه :8/369 وينظر: في الأدب العباسي، د. علي الزبيدي :154
23. في الأدب العباسي، د. علي الزبيدي :155
24. المرجع نفسه :145
25. ينظر: المرجع نفسه :142
26. في الأدب العباسي، د. علي الزبيدي : 92
27. المرجع نفسه :93-92
28. تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، احمد شوقي المشهور بشوقي ضيف (ت1426هـ)، دار المعارف :251
29. الانتحال والعبث في الأدب العباسي، ق2 :185
30. المرجع نفسه :189 وينظر: 195
31. معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي (ت626هـ)، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993م1414-هـ :4/1482
32. في الأدب العباسي، د. علي الزبيدي :113
33. ينظر: المرجع نفسه :37
34. ينظر: أخبار أبي تمام :56-55
35. ينظر: الفهرست، أبو الفرج بن إسحاق البغدادي المعروف بابن النديم (ت438هـ)، تح: إبراهيم رمضان، ط2، دار المعرفة، بيروت، 1997م1417-هـ :324
36. ينظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي (ت597هـ)، تح: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1412هـ1992-م :15/257
37. ينظر: معجم الأدباء :6/2481
38. في الأدب العباسي، د. علي الزبيدي :37-36
39. لسان العرب لابن منظور:10/376 وجمهرة اللغة لابن دريد :2/796 والمخصص لابن سيدة :3/296
40. ينظر: في الأدب العباسي، د. علي الزبيدي :38
41. ينظر: المرجع نفسه :41 استناداً لكتاب مروج الذهب :4/235
42. المرجع نفسه :45-44 استناداً لكتاب المزهر:1/82
43. الانتحال والعبث في الأدب العباسي، ق2 :183-182
44. الأدب العباسي مناهج دراسته ومصادرها :23
45. ينظر: مصادر أخبار بشار:1/11
46. في الأدب العباسي :88
47. أدب ابن خلدون :16
48. في الأدب العباسي :144
49. أدب ابن خلدون :14
50. المرجع نفسه :14
51. المرجع نفسه :14
52. المرجع نفسه :14
53. مصادر الأدب العباسي/منهج البحث :44-43

54. في الأدب العباسي :7
55. المرجع نفسه :9
56. ينظر: الانتحال والعبث في الأدب العباسي، د. علي الزبيدي، ق1، ق2، العدد2، حزيران1957م، مط الرابطة، بغداد
57. أخبار أبي تمام :56-55
58. دواوين الشعر العباسي :101
59. العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت463هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل، 1981م1401-هـ :2/250
60. دواوين الشعر العباسي :105
61. في الأدب العباسي :28
62. دواوين الشعر العباسي :106-105
63. المرجع نفسه :108
64. المرجع نفسه :109-108
65. مصادر أخبار بشار: 1/3 وينظر: ديوان أبي تمام :12
66. ينظر: المرجع نفسه :1/3
67. ينظر: المرجع نفسه :1/7
68. المرجع نفسه :8-1/7
69. مصادر الأدب العباسي/منهج البحث :43

المصادر والمراجع:

1. أخبار أبي تمام، أبي بكر محمد بن يحيى الصولي، تح وتعليق: خليل محمود عساكر ومحمد عبدة عزام ونظير الإسلام الهندي، قدّم له: د.أحمد أمين، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط3، 1400هـ1980-م
2. أدب ابن خلدون، د. علي الزبيدي، مطابع دار الاديب – عمان (د.ت).
3. الأدب العباسي مناهج دراسته ومصادرها، د. علي الزبيدي، مجموعة محاضرات القاها الدكتور على طلبة الدراسات العليا للعام 1983-1982م.
4. الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني، تح: سمير جابر، دار الفكر، بيروت، (د.ت).
5. الانتحال والعبث في الأدب العباسي، د. علي الزبيدي، مجلة كلية الاداب والعلوم، العدد2، ق1، مط الرابطة - بغداد، حزيران/ 1957م.
6. الانتحال والعبث في الأدب العباسي، د. علي الزبيدي، مجلة كلية الاداب والعلوم، العدد/3، ق2، مط الرابطة - بغداد، حزيران/ 1958.
7. البيان والتبيين، عمرو بن بحر الجاحظ (ت255هـ)، دار ومكتبة الهلال – بيروت، 1423هـ.
8. تاريخ الأدب العربي العصر الجاهلي، احمد شوقي المشهور بشوقي ضيف (ت1426هـ)، دار المعارف، (د.ت).
9. جمهرة اللغة لابن دريد الازدي ت321هـ، تح: رمزي منير بعلبكي، ط1، دار العلم للملايين – بيروت، 1987م.
10. جواهر الأدب في أدبيات و إنشاء لغة العرب، احمد بن إبراهيم الهاشمي، مؤسسة المعارف، بيروت، (د.ت)
11. دواوين الشعر العباسي، د. علي الزبيدي، مط دار الاديب، عمان (د.ت).
12. ديوان أبي تمام، د. علي الزبيدي، مجلة البلاغ، العدد 9، السنة الثالثة، مط المعارف، بغداد، 1972م.
13. طبقات فحول الشعراء، محمد بن سلام الجمحي (ت 231هـ)، تح: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة (د.ت).
14. العمدة في محاسن الشعر وآدابه، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني الأزدي (ت463هـ)، تح: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط5، دار الجيل، 1981م1401-هـ.
15. الفهرست، أبو الفرج بن إسحاق البغدادي المعروف بابن النديم (ت438هـ)، تح: إبراهيم رمضان، ط2، دار المعرفة، بيروت، 1997م1417-هـ.
16. في الأدب الجاهلي، د.طه حسين، ط3، مط فاروق، القاهرة، 1933م1352-هـ
17. في الأدب العباسي، د. علي الزبيدي، مط الاديب، عمان (د.ت).
18. لسان العرب لابن منظور ت711هـ، دار صادر – بيروت، 1414هـ.
19. المخصص لابن سيدة المرسي (ت458هـ)، تح: خليل ابراهيم جفال، ط1، دار احياء التراث العربي- بيروت، 1996م.
20. مصادر أخبار بشار، د. علي الزبيدي، مجلة كلية الاداب، العدد7، مط العاني-بغداد، 1964هـ.
21. مصادر الأدب العباسي/منهج البحث، د. علي الزبيدي، مجلة كلية الاداب، العدد8، مط الحكومة، -بغداد العراق، نيسان/ 1965م.
22. معجم الأدباء = إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي (ت626هـ)، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1993م1414-هـ.
23. المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن الجوزي (ت597هـ)، تح: محمد عبد القادر عطا ومصطفى عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1412هـ1992-م.

فقه اسلامي